شيلر الشاعر الألماني

للأستاذ عيسى إسكندر المعلوف

حياته

هو فريدريك فون شيلر ولد في مدينة مارباخ من أعمال مقاطعة ورتمبرغ الجرمانية في ١٠ ت ٢ سنة ١٨٥٩ . وكان أبوه يوهان كاسبار جراحاً مساعداً في الجيش استخدم في حرب أوستريا الارثية . وكانت والدته تقية حنوناً فغرست فيه تلك المبادئ . واسمها اليصابات كورفايس . كان منذ صغره ولوعا بالكتب ، وفي المدرسة كان ينفرد ويطالع ، فيجد تلك الساعات من ألذ أيام حياته ، وكان يهيم في الطبيعة ويسرح في آفاق الخيال وراء شاعريته التي كانت نفسه تنزع إليها

وكان نحيف الجسم مجتهداً كثير المطالعة تنزع نفسه إلى نظم الشعر ، ولذلك جمع بين الإنشاء الطلي والشعر الرقيق والتاريخ الوطني ، فكان ثاني غوته أشهر شعراء ألمانيا

ترك آثاراً تشهد بنبوغه وتفوقه ، وكان أصغر من زميله ومعاصره غوته بعشر سنوات ، تعارفا لما كان شيلر في الرابعة والثلاثين من عمره وغوته في الرابعة والأربعين

انصب شيلر على مطالعة أشعار هوميروس اليوناني وفيرجيل الروماني لإتقانه اللغتين اليونانية واللاتينية كل الإتقان

ثم طالع منظومات « كلوبستوك » شاعر ألمانيا العظيم وغيره من كبار الشعراء ، مما بث فيه روح الشاعرية وقواها

وكان قد درس على علماء عصره المشهورين ونال شهادته بإتمام دروسه سنة ١٧٧٩ بحفلة حافلة شهدها غوته الشاعر الألماني الآنف الذكر . ولم يكن غوته يظن أن شيلر سيكون نابغة في عصره وصديقاً مخلصاً له ، ورجلا محبا لوطنه وشعبه ، ومؤثرا عظيما في رقي بلاده . ولم يكن غوته ليظن بأن شيلر سيصبح كاتباً مدققاً وشاعرا بليغا ومؤرخا ثقة ، ساحب مخيلة واسعة ، طلي الإنشاء ، حتى يحبه الشعب ويحترمه

وكان لما حل شيلر بقرية فولكشتات سنة ١٧٨٨ أن اجتمع بغوته مرة فاستقبله هذا غير مكترث له فأثر ذلك المشهد الاحتقاري في نفس شيلر وحركته عزة نفسه أن كتب إلى صديق له يخبره بعدم تناسب الذوقين أي ذوقه وذوق غوته ، لأن لكل منهما وجهة يتجه لها الواحد دون الآخر

على أن غوته بعد أن طالع آثار شيلر ، ولاسيما قصيدتيه الشهيرتين « المتفننين » و « آلهة اليونان » ، اللتين نسج بردتيهما إذ ذاك نسجا بليغا ، انقلب عن الإعراض إلى الحفاوة والاحترام ، فصار ودهما وثيق العرى متين الأسباب

فكان شيلر ينظر إلى الحياة نظرات فلسفية وينظم الشعر التمثيلي ، وغوته يسبح في عالم الطبيعة ويصوره ناظما الشعر الحقيقي ، ومع ذلك لم يكن هذا التباين في الذوقين بمانع من اتفاق آرائهما بالصداقة وتبادل الحب الصحيح بينهما بإخلاص وأمانة حتى آخر نسمة من حياتهما . وذلك نادر بين صاحبي صناعة واحدة . ولكن الشاعرية التي عرفا بها لم تستطع أن تبث روح الحسد في أحدهما ليعادي الآخر

فصرف شيلر أوقاته مع غوته يتبادلان الآراء ويتجالسان ويتحاوران فانتفع كل منهما من زميله . وهكذا أخرج شيلر آثارا نفيسة في الشعر والتاريخ والروايات التمثيلية الكثيرة ، وهي مما لا تزال تتناقلها الألسنة والأقلام ، وتترجم إلى اللغات المختلفة الغربية والشرقية

ومن غرائب الاتفاق أن هذين الشاعرين المتحابين مرضا كلاهما بوقت واحد وخشي كل منهما موت الآخر . ولكن شيلر قبض إلى رحمة ربه قبل غوته وذلك في أيار سنة ١٨٠٥ فبلغ نعيه غوته فبكاه واشتد حزنه عليه وقال كلمة لا تزال مضرب المثل

لقد فقدت بموت شيلر نصف حياتي

ولشدة حزنه انقطع مدة عن عمله وتفرغ للبكاء ومعاناة الأسف الشديد الذي ألم به . وطال ذلك العهد على غوته حتى توفي سنة ١٨٣٢ وأقيم له سنة ١٩٣٢ تذكار مرور مائة سنة على وفاته بحفلات شائقة ، وسنة ١٩٣٤ أقيم له تذكار مرور ١٧٥ سنة على ولادته . وكتبت الجرائد مقالات شائقة عن الحفلتين في الشرق والغرب . ونشر كثير منها ترجمة حياته وأعماله . وحضر تلك الحفلة كبار رجال الحكومة . وأقاموا الصلاة على قبره . وخطب

الهر جيبلز فقال : « لو عاش شيلر ، إلى اليوم لكان زعيم ثورتنا حرفيا . فنحن نحنى رؤوسنا أمام ذلك الميراث الفنى الذى هو لنا ، لأن لنا وحدنا المقدرة وروح الابتكار لإنجاز رسالة تلك الثورة »

وأنشأت صحف اليونان مقالات أطرت فيها على ذكر شيلر، ومثلت فى المسرح اليونانى الوطـــنى رواية (دون كارلوس) من نظمه

آثاره

اشتغل هذا الشاعر بالأدب والتاريخ والروايات ، فترك آثاراً ذات شأن فى نظر العلم والأدب من روايات تمثيلية وقصائد رائعة، فأخرج شيلر الدراما « قطاع الطرق أو اللصوص » طبعت سنة ١٧٨١ و« المؤامرة والحب » . ومن أهم رواياته « دون كارلوس » (١٧٨٦) . وفيها اشتهر أول ما اشتهر . وآخرها « وليم تل » التى كتبها سنة ١٨٠٤ ومدارها على أخبار وليم تل البطل السويسرى الوطنى . وكان غوته قد سافر إلى سويسرا ودرس جميع الشؤون المتعلقة بهذه الرواية على أمل أن ينسج بردتها بقلمه العسال. فحالت دون ذلك عوائق حملته على انتداب حميمه شيلر لهذا العمل فأعطاه دروسه كلها ، فنظمها وأجاد فيها ما شاءت بلاغته . ولما وقف عليها غوته دهش منه وازداد تعلقاً به واحتراما له فعاشا على حد قول الشاعر :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ومودة الأدب إذا كانت بإخلاص نية وعدم حسد وتنابز كانت آية الآيات فى حسن السلوك وأدب المعاشرة

فكانت هذه الرواية « بوق الحرية الشريف » وآخر رواياته من بدائع قصائده : « آلهة اليونان » ، و« مارى ستوارت » ، و« عذراء أورليان » ، و « عروس مسينا » . وفى مقدمتها يقول « ليس موضوع العلم أن يثير حلم الحرية للحظة . ولكن قصده أن يجعلنا أحراراً بالحقيقة » . و « المتفننون » ، « والقتال » ، ونشيد « فالنشتاين » (١٧٩٩)

ومن مآسيه المشهورة « دون كارلوس » و « وليم تل ». ومما قاله فى مقطوعة عن وليم تل : « نحن نستنشق الهواء الجبلى للحرية ونطأ جبال الألب بحرية شخصية ونشعر برعدة »

ومن مشهورات تواريخه : « تاريخ ثورة هولندا » و« الحرب الثلاثينية » وهو كتاب تاريخ ممتاز

وكان شيلر صحافيا اشتغل بمجلات أنشأها هو أو ساعد غيره بكتابة مقالاتها

وعلى الجملة كان شيلر فيلسوفا ومتفننا ومؤرخا وشاعراً وصحافيا

شئ من آرائه وأقواله

تناقل الكتاب والشعراء كثيرا من آراء هذا الشاعر وأقواله مترجما إلى لغاتهم ومنها لغتنا العربية

قال فى وصف فتاة : « أنت فى السادسة عشرة إذ يبتدئ فؤادك أن يخفق لأول مرة بعواطف الحب ويردد صدى نغماته . إن الفتيات أمثالك لهن دائما مرآتان : المرآة الحقيقية ومرآة المعجب بجمالهن . فتصلح الثانية بتمويهها ما تفسده الأولى بصدقها . فإذا أردت المرآة أثر الجدرى يقول المعجب الأعمى : تلك غاية الجمال. »

وقال يصف شابا : « كنت سالكا سبيلا قويما ولكن تخلى عنى أقرانى وأضلونى الطريق إذ انفصلوا عنى واحدا واحدا »

وقال فى تأثير المرأة : « كلما وجد رجل وصل بعمل إلى غايات المجد وجدت فى جانبه امرأة محبوبة »

ومن أعظم قصائده « لحن الجرس » خاطب به رأسا قلوب الجماعات بقوله : « أنا أدعو الأحياء وأنا أنوح على الموتى وأنا أكسر اللعان ». فهى أشبه بقصيدة لنفلو الشاعر الأميركى « بناء السفينة » . وقد عربنا معظم ديوان الشاعر الأميركى

ومن قوله فى قصيدة القتال : « لا . لا . لن أصبر طويلا على هذا القتال الطاحن الذى يقوم به الواجب . فإذا لم تقدوى على كبح أهواء قلبى أيتها الفضيلة فلا تطلبى منى التضحية . فإن كاليلك هذا يجب أن يبقى كل الأيام بعيدا عنى . خذيه ودعينى وحدى أتلاشى »

عيسى اسكندر المعلوف